من تاريخ الأدب المصري

شعر القاضي الفاضل

للأديب محمد سعيد السحراوى

وقفت على نسخة مخطوطة من ديوان القاضي الفاضل في دار الكتب المصرية فأحببت أن أعرض طرفا منه خدمة للأدب
(م . س)

سيرة القاضي الفاضل

ولد بمدينة عسقلان عام ٥٢٩ للهجرة ؛ فهو ليس مصري الأصل وإن كان مصري الدار . تولى أبوه القضاء في نيسان وهو طفل ، وثقفه تثقيفاً دينياً بحتاً حتى كبر ، فقدم إلى القاهرة في عهد الحافظ لدين الله ، وخدم فيها الموفق بن يوسف ابن جلال مدير ديوان الانشاء إذ ذاك فتعلم فنون صناعته ، وحذا حذوه في كتابته ، ثم انتقل إلى الأسكندرية يخدم بعض حكامها حتي عرف بينهم بالذكاء ، وبنبوغه في صناعة الانشاء ، فلما سمع به العاضد استدعاه إلى القاهرة وعينه كاتباً ، وفي عام ٥٦٦ للهجرة توفى الموفق بن يوسف بن جلال فجعل العاضد القاضي الفاضل مكانه — وظل يكرمه كل وال ويرقيه ، حتى ولى الملك صلاح الدين فجعله كاتبه وقاضيه ، ووزيره ومشيره ؛ وظلت هذه حاله إلى أن توفى في ١٧ ربيع الآخر عام ٥٩٦ للهجرة أي في الليلة التي هزم فيها الأفضل ودخل العادل القاهرة

نسبه وصفاته

وهو الوزير مجير الدين أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف بهاء المجد علي بن القاضي السعيد أبي محمد ويعرف بالبيساني . وقد ذكر عنه المؤرخون أنه كان ديناً كثير الصدقة والعبادة ، وله وقوف كثيرة على الصدقة وفك الأسارى ؛ وكان يكثر الحج والمجاورة مع اشتغاله بخدمة السلطان . وكان ضعيف البنية ، رقيق الصورة ، له حدبة يغطيها الطيلسان . وقالوا عنه أيضاً إنه كان فيه سوء خلق يكمد به نفسه ولا يضر أحداً ؛ وكان يجل أصحاب الأدب ويكرمهم ويعاونهم ، ويؤثر أرباب البيوت والغرباء ولا ينتقم من أعدائه ، فإما أن يحسن اليهم أو يقتصر على الاعراض عنهم[1]

والقاضي الفاضل كاتب معروف وأديب له طابع خاص ، وأسلوبه لا يكاد يجهله مطلع على الآداب العربية ، فهو كما يقال عنه — رب العلم والبيان ، واللسن واللسان ، والقريحة الوقادة ، والبصيرة النقادة ، والفضل الذي ماسمع به الأوائل لمن عاش في زمانه ، وماتعلق أحد بغباره أو جرى في مضماره[2] وهو كذلك شاعر جيد الشعر كما سيجئ

شعره

شعر القاضي الفاضل صورة من نفسه ، يدل على رقة حسه ؛ أكثره في الغزل ، لأنه أسلس ضروب الشعر قيادة للمحسنات اللفظية التي أغرم بها القاضي الفاضل غراماً شديداً ، وكلف بها كلفاً ظاهراً ، في غير تصنع واضح ، أو تطرف يخرج بها عن المعنى الذي يقصده . وقد اكتسب القاضي الفاضل من البهاء زهير وابن سناء الملك وابن قلاقس وغيرهم من الشعراء الذين عاشوا معه في مصر ، رقتهم وموسيقاهم الشعرية العذبة ، كما اكتسب مما كان يأتيه من أشعار الأندلسيين الذين كانوا في إبان نهضتهم الأدبية ، الأخيلة الرائعة والطرائق المستحدثة ، وإن كان قد حافظ على نظام سابقيه ، فظل ينظم فيما تعود سماعه وما كثر النظم فيه فلم ينظر إلى الطبيعة الساحرة نظرة الأندلسيين إليها ، ولم يجب الآفاق البعيدة التي جابوا فيها ؛ وربما كان ذلك نتيجة لنشأته الدينية واحتراماً لجلال المركز الذي وصل إليه

الفخر

القصيدة الأولى في ديوانه يعرفها بعض الأدباء ، وهي في الفخر ، وفيها يصف بلاغته متلاعباً فيها بالمعاني وهي خير مثال على شعره ومنها :

قضى نحبه الصوم بعد المطال ... وأطلق من قيد فتر الهلال
وروض كاتب جنبي اليمين ... وأتعب كاتب جنبي الشمال

(١) ابن خلكان صفحة ٤٠٢ وما بعدها وابن الاثير جزء ١٢ صفحة ٦٥ والخريدة للاصفهاني وغيرهم
(٢) ابن خلكان

فدع ضيقة مثل شد الإسار ... إلى فرجة مثل حل العقال
وقم هاتها مثل ذوب النضار ... وموج البحار وطعم الزلال
جزى الله عني عروس الدوالي ... ولا أخطأتها كؤوس الغزالي
بما أطعمت من لذيذ الثمار ... وما ألبست من نسيج الظلال
وما ساست من مذاب السرور ... وما خفضت من جماح التغالي
فكم زخرفت جنة للعذاب ... وكم رفعت قبساً للضلال
أغالط بالكأس حكم الزمان ... فيوم عليّ ويوم بمالي
فجاءت بما في عيون النساء ... ومرت بما في رءوس الرجال
وأسلو الغزال بها إذ أرى ... بكاساتها دم ذاك الغزال
إذا مزج الماء منها الكئوس ... مزجنا أسنتها بالنصال
وسكران كدر من سكره ... زمان على كل عقل ممال
فسكر الشباب وسكر الشراب ... وسكر الصدود وسكر الوصال
فلا تذكرن عهود الوصال ... فمهدي بها والليالي ليالي
ولم أبك عهداً رجاء الرجوع ... ولكن أجدده بالصقال
يعنن الليالي بيأس جديد ... عليّ قديماً فجاست خلالي
فما جاء عن منطق ذم جان ... ولا جاء عن جوهري ذم حالي
ولم استغث تحت ظل الخطو ... ب جرجرة البُزل تحت الرحال
خشنت لحال كشوك القتاد ... ولنت لأخرى كشوك السيال
ولست لساناً لذل السؤال ... وما زلت صدراً لعز السؤال
حديث يناجي فروع السحاب ... وأصل يناجي أصول الجبال
لي قلم منه عين الكلا ... م تجري فتنظر عين الكمال
راع تظل رياض الطرو ... س منها موشحة بالصلال
كمثل الوقيعة فيها الظلال ... يشيع الوقيعة لي في الزلال
كتب يفيض بأرجائها ... يمين الجدا أو لسان الجدال
تقدمها الشكل من فوقها ... كمثل السهام أمام النصال

وهي طويلة جمعت عدة أنواع من الشعر فأوعت .

الغزل

وشعر القاضي الفاضل الغزلي رقيق جزل ، فهو يقول معاتباً .

إني لطوى الضلوع على جوى ... بأيسر منه ينشر الوابل السجم
أملت نفع الكتم فيه مغالطاً ... غلبني ولكن قل ما نفع الكتم
وقد كان لي عزم على الصبر صابراً ... فقد خانه بعد النوى مانوى العزمُ

وأسعفها باللؤلؤ النثر جفنه ... ويسعفها من بعدها اللؤلؤ النظمُ
لنفسي أريد الوصل لا بعد موتها ... فلا خبر من بعد الممات ولا علمُ
لحى الله هذا العيش إن كان ما أرى ... فآنفه ظل وسالفه حلمُ
ويزعم صبري أنه لي عدة ... وأكبر ظني أن سيكذبني الزعمُ
فلا بعد إطلال الحمى القطر وحده ... ولا دارها دمعي ولا غلتي الظلمُ

***

تحرج عن وصلي مخافة إثمها ... فلا تحرجي إن الصدود هو الإثم
وأكثر أيامي تعقبها الأسى ... عليها ولكن قد تقلبها الدم

رضيت بما يقضى على قسط جوره ... فلم يغضب القاضي وقد رضي الخصم

واستمع إليه يقول متغزلاً ، وفي هذه الأبيات يظهر مدى أثر الشعر الأندلسي فيه :

سنّ النسيم تعانق الأغصان ... أفلا يسن تعانق الخلانِ ؟!
قد كان بينهم حديث ساكت ... ناجى خواطرهم بغير لسان
فهمت قلوبهم فلما لم يجب ... عنها اللسان أجابت العينانِ
والقلب يدرك وهو ليس بسامع ... لفظ الدموع بألسن الأجفانِ
يا راجلاً من عينه قد أصبحت ... في الناس مقفرة بلا إنسانِ
فإذا جرت منها الدموع فإنما ... تجرى لسقيا ذكرك العطشان

ومنها :

بلد بما يسقى غليلك ماؤه ... ما دمت تنزل منه في نيران
وعجبت من متوسل مستوصل ... بجهنم منه إلى بستان

وهو كذلك يقول :

يا هلالاً إذا أنار ضللنا ... وغُصَيْنا إذا تثنّى ثنانا
بينما جلنار وجهك يبدو ... إذ رأينا في صدرك الرمانا

ومن غزله أيضاً :

تلك بجنتها أعين ... وفيها الذي تجتني الأنفسُ
لها نكهة إذ تحيي بها ... يغض لها عينه النرجسُ
وجاءت بعود لها خاطب ... أرم لهَيْبته المجلسُ
لها معجز إن تأملته ... فما سر إعجازه ملبسُ
أري العود من قبلها أخرساً ... وفي يدها ينطق الأخرسُ
كأن المدامة من لحظها ... ونار الغرام بها تقبسُ

وله :

ومالي في صيد العقارب حيلة ... سوى عقرب دبت على ورق الورد

وإني شجاع لا على كل حية سوى حية صيغت من الشعر في الخد!

وفي الأبيات الآتية تبدو حيرته ويتجسم قلقه ، فله من قصيدة :

يمزقني ذا الحب كل ممزق ويصبح خلقي فيه وهو جديدُ
مقيم وقلبي في ركابك سائر قريب - ولكن ما أريد ، بعيدُ

وله من قصيدة أخرى :

ليال تقضت ليس يوم براجع إليها ولكن الليالي سترجعُ
فياليت أسباب الليالي تقطعت كأسبابنا فيها إذا تتقطعُ
وإن فرطت منا وأعيى اتباعها فياليت أن النفس لا تتتبعُ
وإن كان قلبي بين جنبي حاضراً فليت هموم القلب لا تتبوعُ
وبيني وبين النائبات وقائع يهونها الموت الذي أتوقعُ
فكل زمان ليس لي فيه صاحب وكل حبيب ماله فيّ موضعُ !

وقال في حبيب مريض ، وفيها تصوير لنفسه بديع :

وما عدته بل عدت سقمي بقربه ومما به ما بي عليه قريب
أغيب برغمي ثم أحضر غائباً وأنظر آثار الضنا فأغيب !

وقال مداعباً :

بين الضلوع جهنم من حبهم فوددتهم لا يسمعون حسيسها
فمع الظلام الدمع كان طليقها ومع الصباح الهم كان حبيسها

وقال :

وما قضى الدهر لي من قربه وطراً إلا اقتضى الوطر المقضى أوطارا
يا من شقيت به دنيا وآخرة ترى عرفت سوى الدارين لي دارا؟
أشقى البرية منظوراً ومنتظراً هذا الضعيف الذي يهواك جبارا !

ومن شعره الموسيقي العذب قوله :

وقف الطيف بجفني كالطفل سائلاً أين الكرى أين رحل
إنما كان الكرى يسكنها فالكرى من وصلهم ثم انتقل
إنه يا طيف طوفان طغى وابن نوح ليس ينجيه الجبل
إن قلبي من قلوب لم تبن سرها لو لم تبينه المقل
حالت الأشياء عن حالاتها فتولى الماء إيقاد الغلل

هذه أمثلة من شعره الغزلي ، وما هي إلا قطرة من بحره الفياض ؛ ومنها نستطيع أن نحكم على نفسيته ؛ وهي لا تتعدى ما قال المؤرخون فيه .

«يتبع»

محمد سعيد العريان

فردريك نيتشه

FRIEDRICH NIETZSCHE

للأستاذ ابراهيم ابراهيم يوسف

عصره — مولده — تعليمه — شغفه بالأدب والموسيقى — أثر شوبنهاور وفاجنر في تفكيره — أول مؤلفاته — « إنساني وإنساني إلى أبعد حد » « زرادشت » — بقية أعماله — فن نيتشه وفلسفته — وفاته — مدرسته

بدأ التفكير الاجتماعي يظهر جلياً في آداب الأمة الألمانية في خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ويرجع سبب ذلك إلى تغلب النزعة الواقعية على غيرها من النزعات . وكان لهذه النزعة الجديدة أثرها الجليل ، فقد بدأت تسير في سبيلها هادئة حتى تغلغلت في نفوس المتأدبين . وكان على رأس القائمين بهذه الحركة الجديدة فريدريك نيتشه الذي أخذ يميل شيئاً فشيئاً إلى الاعتقاد بأن جماعات الناس تهوي إلى أسفل . وقد أرجع أسباب ذلك إلى أن الأدباء لا يعنون إلا بالفرد في منتجاتهم الفنية ، في حين أن حاجة الفرد ومتاعبه ومشاكله ليست بالذات حاجة العصر ومتاعبه ومشاكله ، وإن حالة الأديب قد تناقض حالة الجماعات البشرية . وعندئذ مال معه بعض صحبه إلى تفكيره هذا ، وبدأت الناس تحس بأن ما كتبه الأدباء عن ماجريات الأحوال وشئون الحياة ، أو ما كتبوه عن المسائل الاجتماعية والشئون السياسية التي سار ويسير إليها العالم ، ليست إلا بعض آراء من شتاتها . ومن ثم أدرك عامة الناس بأن لهم وجوداً ، وأنه يجدر بهم أن يعبروا عن آرائهم بصراحة . فأنجبت هذه الحركة أدباء فنانين من طراز جديد ، منهم المصلح الاجتماعي ، ومنهم الثوري الاشتراكي ، ومنهم طبقات الفوضويين . ولنحاول هنا أن نلم بتاريخ حياة فردريك نيتشه لنتعرف مكانه من بين هؤلاء .

* * *

ولد فريدريك نيتشه في اليوم الخامس عشر من شهر اكتوبر سنة ١٨٤٤ م ، في قرية « ريكن » Roecken الواقعة بالقرب من « لتزن » Loetzen . وقد يبدو لمن يحدق في صورة نيتشه أو يسمع باسمه أنه يمت إلى أصل بولوني ، ولكن الباحثين قد فرغوا من إثبات أصله الألماني . ويرجع التشكك في اسمه